مصطلح الخطاب في الموروث العربي

الدكتور
عباس عبد الحليم عباس
الجامعة العربية المفتوحة / عمّان-الأردن

الملخص:-

تظل قضايا المصطلح والمفهوم المفاتيح الأساسية للولوج إلى أيٍ من ميادين المعرفة وآفاقها البعيدة ، ومن هنا كان لا بد لكل علم من العلوم أن يحدد دلالات مصطلحاته ومفاهيمها تحديدا دقيقا ، وإلا صرنا ندور في دوائر وهمية من الفهم الزائف ، وبعيدا عن جوهر النظرية ، ومكوناتها الأساسية مدعين الفهم الكامل.

لذا يحاول هذا البحث دراسة مصطلح الخطاب في حقول متعددة من موروثنا العربي القديم ، بوصفه مصطلحا منتشرا في ميادين معرفية كثيرة في تراثنا العربي ،ومصطلحا شائكا ، تناوله الدارسون بكثير من الخلط والتشويش ، بحيث غدا لفظا ملتبسا بغيره من الألفاظ والمصطلحات التي راح يعدّها بعض الباحثين مترادفات ومتشاكلات، وهي ليست كذلك . ومن هنا تهدف هذه الورقة لاستنطاق الفهم الصحيح لمصطلح (الخطاب) في سياقات لغوية ودينية وأدبية بوصفه كيانا لغويا ديناميكيا دائب الحركة والتغيّر ، وبوصفه أيضا، ذا امتدادات وتشابكات معرفية معاصرة ، تشير لمركزية هذا المصطلح ، وحيويته في تمثيل مجموعة من الأنظمة اللسانية في ميادين اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية وغيرها ، وصولا لأحدث نظريات " علم النص وتحليل الخطاب " في أيامنا هذه .

The Term (Discourse) in the Arabic Heritage.

Dr. Abbas Abd Al-Haleem Abbas
University Arab Open / Amman-Jordan

Abstract:

The issues of the term and concept remains the primary keys to access the fields of knowledge and its horizons. Hence, it was necessary for every discipline to determine the meanings of its terms and concepts precisely. Otherwise, we will be trapped in vicious circles of misunderstanding, away from the fundamentals of the theory.

Therefore, this research attempts to study the term (**discourse**) in many fields of our ancient Arabic heritage, by considering it a term used in many fields of knowledge in our Arab heritage, and a term used by scholars with lot of confusion. So it became a word loaded with different meanings and terminology, so much so that some researchers consider it a synonyms and symmetrical, which is not so.

The purpose of this paper is to explore the correct understanding of the term " **discourse** " in linguistic, religious and literary contexts as a dynamic and linguistic entity. Contemporary epistemological contexts reflect the meaning of this term in several systems connected to social and political, economic, cultural and other fields, to the most recent theories of (Discourse analysis).

توطئة :

الخطاب كلمة إشكالية، وردت في ميادين معرفية مختلفة، حملت دلالات شتى، وتحتمل في سياقاتها الكثير من التأويلات ، وقد صار لها في العلوم والمعارف المعاصرة شهرةٌ واسعة، وإنّ معظم من كتب عن مصطلح (الخطاب) من المحدثين أشار لضبابية هذه الكلمة ، وتداخلها مع غيرها من المصطلحات ، وقلقها ، والخلاف حول دلالاتها في الثقافة المعاصرة ، وفقا لاختلاف فروع المعرفة التي اشتغلت على هذا المصطلح كالفلسفة واللسانيات وعلم النفس والسياسة ، وعلم الاجتماع ، والنقد الأدبي.. وغير ذلك ، فأسبغ عليها كل منها دلالات تتفق مع وجهة نظره ، ومناهج اشتغاله .

الخطاب في اللغة :

لقد دلت مفردة الخطاب في موروثنا العربي على التفاعل اللغوي والمعرفي بين طرفين ، فالخِطاب كما ورد في اللسان : "مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخِطاباً ، وهما يتخاطبان... والمخاطبة مفاعلة من الخطاب والمشاورة ".[١] وجاء الفيروزآبادي (ت ٨١٧ هـ) في القاموس المحيط ، والزبيدي (ت١٢٠٥ هـ) في التاج بكلام مشابه في تعريف لفظ الخطاب .

فاللفظ يدل على " اللغة المستخدمة ، أو استخدام اللغة ، لا اللغة بوصفها نظاما مجردا "[٢].

في النص القرآني وتأويله :

وقد ورد لفظ الخطاب في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع هي :

١- قال تعالى : "وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب" (سورة ص :٢٠).

٢- وقال تعالى : " فقال أَكفِلْنِيها وعزّني في الخطاب " (سورة ص : ٢٣).

٣- وقال تعالى :"ربِ السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً " (سورة النبأ : ٣٧)

ومعنى (فصل الخطاب) في قوله تعالى : "وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب" :أي "أعطي الفهم" ....وقيل في الخطاب "إصابة القضاء وفهمه" . و(فصل الخطاب "علم القضاء" ... وهو أيضا : "الكلام والفهم والبينات" أو "الشاهدان واليمين" وقيل: بل هو قول "أما بعد..". على ما أورد الطبري [٣]

" وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : وفصل الخطاب : هو أن يحكم بالبيّنة أو باليمين ، وقيل معناه أن يفصل بين الحق والباطل ، ويميّز بين الحكم وضدّه ، وقيل فصل الخطاب : أمّا بعد ؛ وداود عليه السلام ، أول من قال : أمّا بعد ، وقال أبو العباس : معنى أمّا بعدُ : أمّا بعدَ ما مضى من الكلام فهو كذا وكذا " [٤] ومعنى الخطاب الوارد في قول الله تعالى: " فقال أكفلنيها وعزّني في الخطاب " أي "صار أعزّ مني في مخاطبته إياي ، لأنه تكلّم فهو أبينُ منّي .. والخطاب الكلام " [٥] وأضاف الطبـــــري قولَ الضّحاك (ت ٦٤ هـ) : "إن تكلّم كان أبين منى، وإن بطش كان أشدّ مني، وإن دعا كان أكثر مني".[٦] فحمّل الخطاب معاني ودلالات تجاوز بها حدّ الجملة والكلام ، إلى دائرة من التفاعل (اللغوي وغير اللغوي).

بينما دلّ الخطاب في قوله تعالى : "ربِ السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً (سورة النبأ : ٣٧) أي "لا يملكون أن يخاطبوا الله ، والمخاطِب : المخاصِم الذي يخاصم زميله" . [٧]

فالخطاب هو الكلام، والفهم، والفقه، وفي أقوال أخرى ، هو القضاء، والحوار والخصام... ولا شك أنّ كل هذه المعاني توسّع الدائرة الدلالية (للخطاب) لتتجاوز دلالة (الكلام) الذي كثرت الإشارة إليه في المعاجم ، وعند المفسرين ، ليصل بنا الأمر إلى نشاط اتصالي تفاعليّ ضمن سياق ما.

أما (الكلام) بصفته المجردة فلا يشترط له مثل هذا السياق والتفاعل، في حين لو تأملنا الدلالات المتعددة لكلمة خطاب لبدا ذلك التجاذب أو التفاعل والتقارب . والتأسيس المنسجم مع دلالة (أما بعد..) على سبيل المثال، تلك التي أشير لها في تفسير (وفصل الخطاب) فضلا عن دلالات الاتساع في مفهوم الخطاب حين تجاوز الجملة

والبنية الكلامية المحدودة . وينسب الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) لابن عباس قولا واضح الدلالة يبيّن أنّ الخطاب حقل معرفي كليّ ، وذلك حين فرّق بين مكيّ القرآن ومدنيّه بالقول : "المكيّ ما وقع خطابا لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة ؛ لأن الغالب على أهل مكة الكفر ، فخوطبوا لذلك بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ﴾ وإن كان غيرهم داخلا فيها ، والغالب على أهل المدينة الإيمان فخوطبوا بـ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وإن كان غيرهم داخلا فيهم " (٨)

فالسياق الذي حدد ابن عباس من خلاله الشخصية المفهومية لكل من (المكي والمدني)غدا جزءا جوهريا من مفهومه للخطاب ، ولعلنا لا نبرح الحقيقة إذا أشرنا إلى أن هذا الوعي يمثل نمطا متجاوزا من التفكير ، ولا سيما أنّ دراسات تحليل الخطاب ، تقوم في نظرتها التداولية على تفحص البنية السياقية ، وهي في حالة ابن عباس (بنية اجتماعية عقدية /مجتمع كفر / ومجتمع إيمان) ، ولا شك أنّ " الخطاب الذي يتحدد بالبُنى الاجتماعية ، له تأثيراته على هذه البنى ، وله إسهامه في تحقيق الاستمرار والتغيير الاجتماعيين ؛ لأن العلاقة بين الخطاب والبنى الاجتماعية هي علاقة دياليكتيكية " (٩) أي تستهلك الخطاب المنتَج وتعيد إنتاجه ، وهكذا..

وإذا أخذنا مفردات مجاورة لمفردة الخطاب في سياقاتها اللغوية أو القرآنية للمسنا أبعادا جديدة قد تضاف لتأويلات محتملة تخدم الدلالة الخاصة لمصطلح الخطاب ، ومن هذه المجاورات اللغوية ، ماتشير إليه كلمة (خَطْب) أي " الشأن أو الأمر ، صغر أو عظم ... وتقول : هذا خطب جليل ، وخطب يسير... ومنه قولهم : جلَّ الخطب ، أي عظم الأمر والشأن " (١٠)

وأمّا المجاورات القرآنية فنحو :

-" وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " (الفرقان : ٦٣)

-" ولا تخاطبني في الذين ظلموا" (هود : ٣٧)

-"قال فما خطبك ياسامري "(طه : ٩٥)

-" قال فما خطبكم أيها المرسلون "(الذاريات : ٣١)

-"قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء"(القصص :٢٣)

-"قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه "(يوسف :٥١)

إذن، تشكل المرجعية المعجمية ، والسياق القرآني منطلقا تأسيسيا لاكتناه المنبع الدلالي لاصطلاحية كلمة (خطاب) ، وقد أشار المصطلحيون إلى " أنّ بين المصطلح وأصله اللغوي وجوها من المناسبة ، وهذه لا تنقطع باكتساب اللفظ لدلالته الاصطلاحية، والصلة بين الدلالتين – اللغوية والاصطلاحية – قد تكون ظاهرة ، وقد تكون خفية " [١١] وهنا يغدو الجهد التأويلي عاملا مهما من عوامل جلاء هذه الصلة ، واستنطاق طبيعتها .

ولا شك أنّ للغة القرآن العظيم دورها في بناء جهاز المفاهيم في الثقافة العربية ، فهذا ابن فارس (ت ٣٩٥) يقول : " كانت العرب في جاهليتها على إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم .. فلما جاء الله – جل ثناؤه – بالإسلام حالت أحوال ، ونسخت ديانات ، وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع أخر، بزيادات زيدت ، وشرائع شرعت ، وشرائط شرطت .." [١٢]

وبما أن الكلمة غادرت مدلولها اللغوي في بعض السياقات فقد أمكن الحديث عن وضع مصطلحي لها ، ويشير أحمد مطلوب إلى أنّ " أول المصطلحات العلمية ما جاء في القرآن الكريم ، وكان لكثير منها معنى لغوي ، فنقلت من معناها الأول إلى المعنى الجديد."[١٣]الذي اقتضته الحقيقة الشرعية أو الاجتماعية على سبيل المثال.

وقد عملت ميادين معرفية أخرى في تراثنا العربي على رفد هذين المصدرين (اللغوي والشرعي) بمزيد من التصورات حول المصطلح ، كميدان التفسير ، وأصول الفقه ، والفلسفة ، والجدل ، والتصوف ، والنقد الأدبي والبلاغة وغيرها .

ليضعنا ذلك كلُّه أمام مفهوم للخطاب يُستمد من معناه العام ، كما يستمد من جذوره ومشتقاته ، واجتهادات المؤولين فيه ، لنرسم بكل ذلـــك تصورا يعزز النظرة المصطلحية لهذه الكلمة .

الخطاب بين اللسانيات وعلم الأصول :

فلفظ (الخطاب) تضمن فيما سبق ملازمة الحدث اللغوي الكلامي لسياق أعم (مناخ موضوعي كلي ، أو قيمي اجتماعي ، أو مؤسسي ديني ...) وكأنّ الخطاب في الأمثلة السابقة دلّ على نشاط لغوي ما ضمن هذا الكلي ...! لذا فإنّ " مصطلح الخطاب من حيث معناه العام ...يحيل على نوع من التناول للغة ، أكثر مما يحيل على حقل بحثي محدد ، فاللغة في الخطاب لا تعد بنية اعتباطية ، بل نشاط لأفراد مندرجين في سياقات معينة" (١٤)

ومن هنا " يجب أن يكون مصطلح (الخطاب) مفهوما بمعناه الأوسع ، فكل تعبير من المفترض أن يوجد له متحدث ومستمع ، وفي حالة المتحدث يتم التأثير على الطرف الآخر بطريقة ما... وصرّح روجر فاولر بأنّ الخطاب هو مشهد مقروء أو مكتوب ، من وجهة نظر المعتقدات ، القيم ، والمقولات التي تجسدها هذه المعتقدات " (١٥)

مما يعني أنّ التناول اللساني لمصطلح الخطاب شكّل حقيقته اللغوية ، التي اندغمت في حقيقته الاصطلاحية ، بحيث غدا وجوده الاصطلاحي مدرَكا (بها وبغيرها) معا ، فصار هذا المزيج بين (اللغوي والعرفي) المعطى النهائي لمفهوم (الخطاب) في المدونة التراثية ، هذه المدونة التي تشعبت ثقافيا ومعرفيا ، فنتج عن ذلك تشعبات في الطرح ، وتعدد في وجهات النظر.

الخطاب عند علماء الأصول:

فعلماء الأصول جعلوا (الخطاب) واحدا من أبرز مصطلحاتهم ، وفرّعوا منه تفريعات عدة ، إذ يرى أبو حامد الغزّالي (ت ٥٠٥ هـ) أن الخطاب "اسم مشترك قد يطلق على الألفاظ الدالة على ما في النفس ، تقول : سمعت كلام فلان وفصاحته ، وقد يطلق على مدلول العبارات ، وهي المعاني التي في النفس". (١٦)

وعرّف أبو الحسن الآمدي (ت ٦٣١ هـ) الخطاب بأنه : "اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيْ لفهمه". (١٧) وقد " جرى الخلاف في تسمية كلام الله تعالى خطابا في

الأزل قبل وجود المخاطَبين " [١٨] ، ولعل مرد ذلك ربط القدماء بين مصطلحي (الخطاب والكلام) من جهة ، واختلافهم في تعريف الكلام من جهة أخرى ،فالآمدي (ت ٦٣١هـ) يرى أنّ الكلام " يطلق على العبارات المفيدة تارة ، وعلى معانيها القائمة بالنفس أخرى " [١٩]

وعلى هذا فإن مصطلح الخطاب يشير إلى الكلام النفسي غير المتحقق لفظاً، كما يدل على الرسالة المتحققة فهماً، وبُني على ذلك فهم أصولي مفاده "أنّ الخطاب منه ما هو لفظ، وما هو ليس بلفظ، فاللفظ منهما هو خطاب الله –عز وجل- وخطاب الرسول-صل الله عليه وسلم- وخطاب علماء الأمة (الإجماع). و غير الخطاب منها هو الأفعال والإقرارات، وكذلك القياس والاستصلاح، وغير ذلك من مصادر التشريع". [٢٠]

ومن تفرعات مصطلح الخطاب عند الأصوليين : (خطاب الشرع) وهو قسمان :

أحدهما : خطاب التكليف (بالأمر والنهي والإباحة) أي الإنشاء

والثاني : خطاب الوضع (الذي أخبرنا أنّ الله وضعه ، ويسمى خطاب الأخبار)[٢١] أي الخبر

فالخطاب بهذا الفهم الأصولي يؤدي دلالات عدة، كالعبارة والتصور، والنشاط المعرفي (تشريعي ديني، اجتماعي تواضعي ، نفسي...إلخ). بمعنى أنه "اتصال يتم بين المتحدث والمستمع، أو نشاط خاص بالعلاقات بين الأشخاص". [٢٢] أو بين عناصر الخطاب.

وبسبب من تأرجح مفهوم الخطاب ، وتغيّر طبيعته ، وحركيته ضيقا واتساعا ، فقد تداخل مع مصطلح (النص) في ثقافتنا العربية ، وهنا يشير بعض الباحثين إلى أنّ مصطلح (الخطاب) " هو الأكثر رواجا عند أوائل الأصوليين ومتقدميهم ، أما عند المتأخرين فقد صار مصطلح (النص) يزاحم مصطلح الخطاب ، وإن استمرت الغلبة لهذا الأخير ، ومما يجدر قوله أنّ مصطلحي (النص الشرعي والخطاب الشرعي)، وإن كانا مترادفين في الدلالة على لفظ الكتاب والسنة ، إلا أن الترادف بينهما ليس تاما ، وذلك من جهات :

إحداهما : أن النص من الناحية اللغوية لا تشترط له المواجهة ، أي وجود المتكلم والمخاطب في الوقت نفسه .أما الخطاب ، فتشترط له المواجهة لغة .

والجهة الثانية : أن الخطاب يتضمن - عند كثير من الأصوليين- جميع الأدلة ، المعتبرة شرعا ، من كتاب وسنة وإجماع وقياس واستحسان وغير ذلك . أما النص فلا يتضمن إلا دليلي الكتاب والسنة .

والجهة الثالثة : أنّ بعض الأصوليين يستثني من الخطاب (الفعل النبوي) بينما هو داخل في النص " [٢٣]

ومع ضرورة النأي عن المبالغة في تحميل فهم الأصوليين لمصطلح الخطاب ما لم يحمله المصطلح ، يجب ألّا نذهب إلى تفريغ المصطلح من مدلولاته الاصطلاحية المغايرة للمعنى اللغوي للكلمة ، كما فعل الدكتور جابر عصفور حين نفى أي علاقة بين مصطلح الخطاب بدلالاته المعاصرة ، ووجوده في الثقافة العربية ، قائلاً : " كلمة الخطاب من الكلمات التي أصبحت تحمل دلالات محدثة، تقترن بما ينطوي عليه المشهد الثقافي المعاصر من خصائص مائزة على مستويات عدة ، وآية ذلك إلحاح الكلمة على ممارساتنا اللغوية في السنوات الأخيرة ، وكثرة تداولها بين المثقفين العرب ، وأداؤها من المعاني ما لم يكن موجوداً، أو مشاراً إليه، في اللغة العربية، منذ عهد قريب، ورغم أنّ الكلمة قديمة، من حيث أصولها العربية المقترنة بالنطق، فإن استخداماتها المحدثة، أو المعاصرة، بوصفها مصطلحاً له أهميته المتزايدة، تدخل بمعانيها إلى دائرة المعرب، أو الدخيل، من الكلمات الاصطلاحية التي هي أقرب إلى الترجمة، والتي تشير حقولها الدلالية إلى معان وافدة، ليست من قبيل الانبثاق الذاتي في الثقافة العربية".[٢٤]

وفي هذا الذي يذهب إليه جابر عصفور، من التجنّي ما فيه ؛ لأنه تعميم واضح من جهة، ولأن قليلاً من التأمل في استخدام المصطلح في (علم الأصول)، بل في دلالاته اللغوية والمعرفية المتحركة ، من جهة أخرى ، يظهر الكثير من الوشائج بين مفهوم مصطلح الخطاب في تراثنا العربي ومفهومه في الثقافة الغربية المعاصرة، ولعل هذه المدافعة لا تأتي من قبيل الحرص على ربط تراثنا بثقافة الآخر، بقدر ما هي نابعة من إقرار واقع معرفي، وإبراز حقيقة ثقافية منطبقة على مسيرة هذا المصطلح وسيرورتها في بيئتها اللغوية إلى القرآنية ثم الأصولية في ميادين المعرفة الأخرى .

التداخل المفهومي بين النص والخطاب:

ألا يكفي هذا التداخل الدلالي بين مصطلحيّ (النص والخطاب) في الثقافة العربية ، ونظيره من التداخل بين عيني المصطلحين في ثقافة الغرب برهانا ودليلا على بعض التواشج – ولو خارجيا –بين شخصتي المصطلحين في هاتين الثقافتين ؟! وخاصة حين نقف على إشارة كل من "جريماس وكورتيس في معجمهما إلى أنّ مصطلح النص يؤخذ في الغالب كمرادف لمصطلح الخطاب " [٢٥]

وقد بدا لنا هذا التداخل واضحا في الخطاب الأصولي كما سلف ، بل بدا لنا أيضا نوع من الوعي بضرورة التفريق بين المصلحين عند الأصوليين ، وبالمقابل طالما جهدت الثقافة الغربية المعاصرة في رسم ملامح فارقة بينهما ، منها ما جاء في معجم (D.Crystal) من أنّ " النص كائن فيزيائي منجز ،أما الخطاب فهو موطن التفاعل ، والوجه المتحرك منه ويتمثل في التعبير والتأويل "[٢٦]

وكذلك كيف يكون الفعل الأصل لكلمة (خطاب) في لغات الغرب "يتضمن معنى التدافع الذي يقترن بالتلفظ العفوي ، وإرسال الكلام ، والمحادثة الحرة ، والارتجال، وغير ذلك من الدلالات التي أفضت، في اللغة الأوروبية الحديثة إلى معاني العرض والسرد والخطبة الطويلة.. وأخيراً اللغة من حيث هي أفعال أدائية لفاعلين، وممارسات اجتماعية لذوات تمارس الفعل الاجتماعي وتنفعل بـه بواسطة اللغة " [٢٧] . كيف يكون هذا كله ، ولا نقر بحقيقة اصطلاحية كلمة الخطاب في ثقافة العرب وموروثهم اللغوي .

وقد شاع أنّ "مصطلح الخطاب في المفهوم المعاصر يعبّر عن القول الذي يتجاوز الجملة ".[٢٨] وبذا من غير الإنصاف عزل منجزنا الثقافي عن سياقاته الإنسانية ، والاكتفاء بظاهر القضية – في موضوعنا تحديدا – لأن استخدامات مصطلح الخطاب توضح كيف قدّم له الأسلاف مفهوما متقدما، وتمثلوا من خلاله مشكلات ثقافية تتعلق بالتحولات المعرفية ، والإنتاج العلمي ، فلا ينبغي بعد ذلك كله أن يكون الجهل بذلك مبررا لإنكار أصالة هذا المفهوم ، والتجني على ثقافة برمّتها في هذا الإطار .

ولا ننسى أنّ إشكالية التداخل المعاصر بين مصطلحي (النص/Text) و (الخطاب Discourse) والنظر إلى مصطلح الخطاب بصفته مصطلحاً مربكاً في الثقافة الغربية نفسها، هو صورة مماثلة لبعض الإرباك الذي أحاط بالمصطلح في موروثنا العربي.

ولحل مثل هذا الإرباك حاول الغربيون إيضاح الفرق بين (النص والخطاب) ليذهبوا إلى أنّ "اللسان والكلام معنيان لا يكافيء أيُّ منهما ما نعنيه بالخطاب، ولكن تناولهما قد يساعد في استجلاء بعض التصورات الخاصة باللغة، وما يختلف به الخطاب عن هذه التصورات" [٢٩] مضيفين لذلك " أنّ الشروط الاجتماعية هي التي تحدد خصائص الخطاب" [٣٠] للوصول إلى تحديد أدق لماهيته ، ينماز فيه كلياً عن (مصطلح النص) من خلال التأكيد على أن "النص نتاج وليس سيرورة... أما مصطلح الخطاب فيستخدم للإشارة إلى كامل سيرورة التفاعل الاجتماعي التي لا يشكل النص سوى جزء منها. فسيرورة التفاعل الاجتماعي هذه تشتمل، بالإضافة إلى النص، على سيرورة الإنتاج التي يكون النص نتاجاً لها، وعلى سيرورة التأويل التي يكون النص مرجعها. وهذا ما يجعل تحليل النص جزءاً واحداً فحسب من تحليل الخطاب الذي يشتمل أيضاً على تحليل السيرورتين الإنتاجية والتأويلية" [٣١].

ومع أن مصطلح الخطاب في المدونه اللسانية المعاصرة خاضع للتأويل ، وله "مفهوم مائع ومتعدد الدلالات". [٣٢] إلا أنّ ارتحاله إلى بيئات ثقافية عربية متباينة أكسبه ثراءً مفهومياً وتطوراً دلاليا يشير إلى الشخصية الإشكالية لهذا المصطلح ، وقد اتضح من خلال حركيته الاصطلاحية في السياقات الثقافية المختلفة ، السياق اللغوي والتفسيري والأصولي ، كيف اكتسب حجمه ومداه في جهاز المفاهيم في الثقافة العربية ، ولا شك أنّ هذا الحجم وهذا المدى محكومان بعوامل داخلية لكل بيئة من هذه البيئات ، " فالمصطلح لغة خاصة ، ومعجم قطاعيّ يسهم في تشييد بنائه ورواجه أهل الاختصاص في قطاع معرفي معيّن " [٣٣].

الخطاب عند الصوفية :

وبالعودة إلى مصطلح الخطاب في قطاعات معرفية أخرى ، أشير إلى أن المتصوفة منحوا الخطاب مفهومه العرفاني الخاص ، يقول ابن عربي (ت ٦٣٨ هـ) : " إذا حصل للعقل آثار العلوم من فيض الروح الكليّ عبّرنا عنه بالكلام والقول والخطاب "[٣٤] وهذا الفيض يوضح أنّ علاقة الخطاب ببعده اللساني علاقة هشة ، إذ لم يعد المنطق اللغوي المادي (من خلال ثنائية اللفظ والمعنى) مسيطرا على مفهوم العارفين للخطاب ، لذا دفع المتصوفة بمصطلح الخطاب إلى عمق منظومة المعرفة لديهم ، وصاغوا منه مصطلحا مؤسسيا بامتياز ، فعند الجيلي (ت ٥٦٦ هـ) " خطاب أهل الله : معنى بلا حرف ، وكشف دون كشف" [٣٥] وفي شرح هذا المفهوم " علّق الشيخ عبد الغني النابلسي على هذا النص قائلا : أي أنه كشف لكنه ليس كما يكشف الغطاء عن الآنية ، أو الستر عن الباب ، بل هو أمر إذا ظهر يرى العبد أنّ ذلك لم يكن مستورا بشيء ، وإنما الإدراك كان ضعيفا عن الوصول إليه ، فقوّاه الحق تعالى فأدرك " [٣٦] فمصطلح الخطاب لا يعترف ببنيته المادية اللغوية ، فقد تخطى به المتصوفة دلالة (اللفظ المفهم للمعنى) ليقدّم لنا طريقة مغايرة في إنتاج المعاني ، فالخطاب هنا يتأسس على المجرد اللا محدود ، وليس على المادي المحدود ، وفي هذا إشارة إلى أثر الخطاب وقدرته على إنتاج نفسه بنفسه ، وتجاوزه أحادية الفهم ، ليبقى في حركة دائمة ، وقابلا للتأويل .

مفهوم الخطاب عند البلاغيين والنقاد:

وإذا انتقلنا إلى البلاغيين والنقاد العرب القدماء نجد أنّ مصطلح (الخطاب) هو أحد مكونات الجهاز المفاهيمي لعلم البلاغة وميدان النقد الأدبي ، وقد غدا عندهم ليغدو أقرب إلى مصطلح (الأسلوب) أو (الغرض البلاغي) حيث ذكر الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) في البرهان، أربعين وجهاً من أوجه الخطاب في القرآن الكريم، منها [٣٧]:

- خطاب التهكم، كقوله تعالى: "ذق إنك أنت العزيز الكريم".
- وخطاب التعجيز، كقوله تعالى: "فأتوا بسورة من مثله".

- خطاب التلوين ، كقوله تعالى: "يا أيها النبي إذا طلّقتم النساء".

وغير ذلك .

ولا شك أنّ هذا التصنيف للأساليب ، وعدّ كل منها خطابا هو مقاربة اصطلاحية لكلمة (الخطاب) ،فقولنا : (خطاب التعجيز) مثلا ، لا يعني أبدا الجملة أو المثال تحديدا ، ولا يعني فقط الكلام المشار إليه بجملة محددة ، بل هو ميدان (لغويّ أسلوبيّ دلاليّ ثقافيّ عام)، يتضمن كل المعطيات اللفظية والنفسية والقيم والمواضعات المنتَجة في إطار خطاب لغوي مكون من (مخاطِب/ ومخاطَب / ومعرفة لغوية مسبقة بمفهوم التعجيز / وتصور ما للمعجز وغير المعجز / وسوى ذلك ...)

وإذا دلّ مصطلح (الخطاب) على مفهوم الأسلوب في جوانبه المعنوية وأغراضه البلاغيه، فقد دلّ أيضاً على مفهوم الأسلوب في جانبه الفني الصياغي، وهو ما نجده عند بعض النقاد والبلاغيين الأندلسيين كالكلاعي (ت ق ٦ هـ). صاحب (إحكام صنعة الكلام) الذي عقد فصلاً في (أقسام الخطاب) قائلاً: "الخطاب يقسم إلى ثلاثة أقسام: منه مارفل ثوب لفظه على جسد معناه، وهذا هو الإسهاب، ومنه ما ثوب لفظه كثوب المؤمن، وهذا هو الإيجاز، ومنه ما خيط ثوب لفظه على جسد معناه، وهذا هو المساواة".[٣٨] فالخطاب لدى الكلاعي تعبير عن باب بلاغي كليّ ، مكتمل (ببنائه اللغوي ، وتجلياته الدلالية ، ومعطياته الجمالية ، وغير ذلك)

ولعل ابن البنـّاء المراكشي العددي (ت ٧٢١هـ) أحد أقطاب المدرسة الفلسفية في النقد الأدبي ، هو من أكســـب مصـــــطلح (الخطاب) ملامح الفعالية الفكرية الكلية ، والإطار الثقافي ، والممارسة الشمولية ، وجعله أقرب إلى كونه ممارسة جمعية ، وذلك حين جعل (البرهان) خطاباً .. وكذلك الجدل ، والخطابة ، والشعر ، فكل ممارسة لغوية ونشاط معرفي من هذه الممارسات والأنشطة (خطابٌ)، يقول ابن البنّاء في (الروض المريع):

"وينقسم القول إلى موزون مقفى وهو المنظوم، وإلى غير ذلك، وهو المنثور، ويستعمل كل واحد منهما في المخاطبات، وهي على خمسة أنحاء:

الأول: البرهان، وهو الخطاب بأقوال اضطرارية، يحصل عنها اليقين.

والثاني: الجدل، وهو الخطاب بأقوال مشهورة، يحصل عنها الظنّ الغالب.

والثالث: الخطابة، وهو الخطاب بأقوال مقبولة يحصل عنها الإقناع.

والرابع: الشعر، وهو الخطاب بأقوال كاذبة مخيّلة على سبيل المحاكاة، يحصل عنها استفزاز بالتوهمات.

والخامس: المغالطة، وهو الخطاب بأقوال كاذبة يحصل عنها ظهور ما ليس بحق أنه حق.[٣٩]

فهذه الرؤية تفضي إلى تشكيل صيغة جديدة لمصطلح الخطاب ، يضاف إلى صيغه وتشكيلاته السابقة ، ليبدو جليا أنّ هذا المصطلح مثّل مظهرا ثقافيا مهما في عدد من السياقات المعرفية في تراثنا العربي ، وهو بذا بحاجة لأن يدرس ضمن منظومة الأفكار الخاصة بكل سياق على حدة ، لنقف بالتالي ، على تفاصيل معرفية وفنية أسهمت في تكوين هوية المصطلح ، وتحولاته داخل هذه المنظومة .

وقد طرحت فيما سبق من سطور تصورا خاصا لمصطلح الخطاب بناء على قراءات ذات منحى استقصائي تحليلي ، وحسبي أن يمثّل هذا الطرح محاولة تأصيلية ، وإن كان ظاهرها يؤصل لمصطلح واحد ، إلا أن هدفه الأبعد ومرماه الحقيقي ، هو الدفع باتجاه نظرة موضوعية تحليلية لقضايا المصطلحية العربية وإشكالاتها في الخطاب الثقافي العربي القديم .

الهوامش :-

(١) لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت ، ١٩٨٩، مادة خ ط ب .

(٢) المصطلحات الأدبية الحديثة ، محمد عناني ،مكتبة لبنان ناشرون ،ط١ ،١٩٩٦،ص ١٩.

(٣) تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري .دار قباء،دمشق ،١٩٨٨، ٢٥

(٤) لسان العرب ، ابن منظور ، مادة : خ ط ب .

(٥) تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري .

(٦) نفسه ، تفسير سورة ص ، آية ٢٣ .

(٧) نفسه ، تفسير سورة النبأ : ٣٧.

(٨) البرهان في علوم القرآن ،الزركشي ، تحقيق : أبو الفضل الدمياطي ، ط١، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٦ ، ص ١٣٢.

(٩) الخطاب بوصفه ممارسة اجتماعية ، نورمان فيركلو ، ترجمة : رشاد عبد القادر، مجلة الكرمل ، ع٦٤، ٢٠٠٠،ص ١٦٩ .

(١٠) اللسان : خطب .

(١١) الدراسة المعجمية للمصطلح ، مصطفى اليعقوبي ، مجلة دراسات مصطلحية ،تونس،ع٥ ، ٢٠٠٦ ، ص ٣٣.

(١٢) الصاحبي في فقه اللغة ،أحمد بن فارس ، تح: أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية ،1997 ، ص ٨٧ .

(١٣) بحوث مصطلحية، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي، بغداد، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦، ص ١٠٠.

(١٤) المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، دومينيك مانغونو ، تر: محمد يحياتن ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، ٢٠٠٨، ص ٣٨.

(١٥) مفهوم الخطاب والدراسات الأدبية واللغوية المعاصرة ، سارا ميلز ، تر: عصام كامل ،دار فرحة ، مصر، ٢٠٠٣، ص ص ١٢-١٣ .

(١٦) المستصفى من علم الأصول، أبو حامد الغزالي، دار الكتب العلمية،بيروت، ٦٤/١.

(١٧) الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي، دار ابن حزم ودار الآفاق الجديدة ، القاهرة،١٨/١.

(١٨) تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء،١٩٨٩، ص ٢٥.

(١٩) منتهى السؤل في علم الأصول ، الآمدي ، الجمعية العلمية ، مصر ، د.ت ، ص١٧.

(٢٠) كشاف اصطلاحات الفنون ، التهانوي ، مادة : خطاب .

(٢١) موسوعة مصطلحات أصول الفقه عند المسلمين ، رفيق العجم /مكتبة لبنان – ناشرون ،ط١ ، ١٩٩٨ ، مجلد ١ ، ص٦٧٧ .

(٢٢) مفهوم الخطاب في الدراسات الأدبية واللغوية المعاصرة ، سارا ميلز ، ترجمة : عصام كامل ، دار فرحة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠٠٣، ص ١٠.

(٢٣) قراءة نقدية في مصطلح النص في الفقه الأصولي ، أيمن علي صالح ، مجلة إسلامية المعرفة ،س٩ ،ع ٣٣-٢٠٠٣،٣٤،صص ٦١-٦٢.

(٢٤) خطاب الخطاب ، جابر عصفور ، ضمن : في محراب المعرفة ، دراسات مهداة إلى إحسان عباس ، تحرير د. إبراهيم السعافين ، دار صادر ، ط١،١٩٩٧ ، ص ٩٧.

(٢٥) مفهوم النص ، محمد وهابي ، مجلة عالم الفكر ،الكويت، ع٢، مج ٤١، ٢٠١٢، ص ٢٠٢، وهو ينقل عن معجم سيميائي منشور بالفرنسية لهذين المؤلفين .

(٢٦) نسيج النص ، الأزهر الزناد ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط١،١٩٩٣، ص ١٢، نقلا عن A dictionary of، Linguistics and Phonetics .

(٢٧) خطاب الخطاب ، جابر عصفور ،ص ٩٧.

(٢٨) معجم مصطلحات نقد الرواية، لطيف زيتوني، مكتبة ناشرون- لبنان، ط١، ٢٠٢، ص ٨٩.

(٢٩) الخطاب بوصفه ممارسة اجتماعية ، نورمان فيركلو ، تر: رشاد عبدالقادر، مجلة الكرمل، ع٢٠٠،٦٤م،ص ١٥٦.

(٣٠) نفسه ، ص١٥٥.

(٣١) نفسه ١٥٩.

(٣٢) تحيل الخطاب الروائي، سعيد يقطين ، ص ٢٥.

(٣٣) اللسانيات واللغة العربية ، عبد القادر الفاسي الفهري ، دار توبقال ، المغرب ،١٩٨٥،ج٢/٢٢٨

(٣٤) التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية ، محيي الدين بن عربي ، ليدن ، ١٣٣٦هـ ، ص ١٦٠ .

(٣٥) المناظر الإلهية ، الشيخ عبد الكريم الجيلي ، شركة الطباعة الفنية المتحدة – مصر – ط١ – ١٩٦٢ ، ص ٢٣

(٣٦) موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان ، الشيخ محمد الكسنزان ، دار آية – بيروت ، ط١، ٢٠٠٥، ج٧، ص ١٧٠-١٧١

(٣٧) البرهان، الزركشي / وتواترت هذه الدلالات البلاغية عند الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) في الكشاف، والسبكي (ت ٧٧٣هـ) في عروس الأفراح (٤٧٣/٤) .

(٣٨) إحكام صنعة الكلام، لإبي القاسم محمد بن عبدالغفور الكلاعي الإشبيلي الأندلسي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة بيروت، ١٩٦٦، ص ٨٩.

(٣٩) الروض المريع في صناعة البديع، ابن البنّاء المراكشي العددي، تحقيق، رضوان بنشقرون،١٩٨٥، ص ٨١.

مصادر البحث :

إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم محمد بن عبدالغفور الكلاعي الإشبيلي الأندلسي ، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة بيروت، ١٩٦٦.

- الإحكام في أصول الأحكام، سيف الدين الآمدي(٦٣١هـ) دار ابن حزم ودار الآفاق الجديدة ٢٠٠٢.
- بحوث مصطلحية، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي، بغداد، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦.
- البرهان في علوم القرآن ،بدر الدين الزركشي (٧٩٤هـ) تحقيق : أبو الفضل الدمياطي ، ط١، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٦ .
- تاج العروس ، مرتضى الزبيدي (ت١٢٠٥ هـ) منشورات الجمل ، القاهرة ، د.ت .
- تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء،١٩٨٩
- التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية ، محيي الدين بن عربي ، ليدن ، ١٣٣٦هـ.

- جامع البيان في تفسير آي القرآن ، محمد بن جرير الطبري (٢٢٤هـ) دار المنار، بيروت ، ١٩٩٩ .
- الخطاب بوصفه ممارسة اجتماعية ، نورمان فيركلو ، ترجمة : رشاد عبد القادر، مجلة الكرمل ، ع٦٤، ٢٠٠٠.
- خطاب الخطاب ، جابر عصفور ، ضمن : في محراب المعرفة ، دراسات مهداة إلى إحسان عباس ، تحرير د. إبراهيم السعافين ، دار صادر، ط١٩٩٧،١ .
- الدراسة المعجمية للمصطلح ، مصطفى اليعقوبي ، مجلة دراسات مصطلحية ،ع٥ ، ٢٠٠٦ .
- الروض المريع في صناعة البديع، ابن البنّاء المراكشي العددي، تحقيق، رضوان بنشقرون،١٩٨٥،
- الصاحبي في فقه اللغة ،أحمد بن فارس ، تح: أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية ،١٩٩٧ .
- عروس الأفراح ، بهاء الدين السبكي (ت ٧٧٣هـ) الدار المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
- القاموس المحيط ، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧ هـ) دار صادر، بيروت ، ١٩٧٨.
- قراءة نقدية في مصطلح النص في الفقه الأصولي ، أيمن علي صالح ، مجلة إسلامية المعرفة ،س٩ ،ع ٣٣-٣٤،٢٠٠٣،
- الكشاف ، جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) دار القبلة ، جدة ، ٢٠٠١.
- كشاف اصطلاحات الفنون ، محمد بن علي التهانوي (١١٥٨هـ) منشورات الصلاح ، بيروت ،١٩٦٩.
- لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور(٧١١هـ) دار صادر، بيروت ، ١٩٧٨.
- اللسانيات واللغة العربية ، عبد القادر الفاسي الفهري ، دار توبقال ، المغرب ،١٩٨٥

- المستصفى من علم الأصول، أبو حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، د.ت.
- المصطلحات الأدبية الحديثة ، محمد عناني ،مكتبة لبنان ناشرون ،ط١ ،١٩٩٦
- المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، دومينيك مانغونو ، تر: محمد يحياتن ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، ٢٠٠٨.
- معجم مصطلحات نقد الرواية، لطيف زيتوني، مكتبة ناشرون- لبنان، ط١، ٢٠٠٢،
- مفهوم الخطاب والدراسات الأدبية واللغوية المعاصرة ، سارا ميلز ، تر: عصام كامل ،دار فرحة ، مصر ، ٢٠٠٣.
- مفهوم النص ، محمد وهابي ، مجلة عالم الفكر ، ع٢، مج ٤١، ٢٠١٢.
- المناظر الإلهية ، الشيخ عبد الكريم الجيلي ، شركة الطباعة الفنية المتحدة – مصر – ط١ – ١٩٦٢.
- منتهى السول في علم الأصول ، الآمدي ، الجمعية العلمية ، مصر ، د.ت .
- موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان ، الشيخ محمد الكسنزان ، دار آية – بيروت ، ط١، ٢٠٠٥.
- موسوعة مصطلحات أصول الفقه عند المسلمين ، رفيق العجم /مكتبة لبنان – ناشرون ،ط١ ، ١٩٩٨ .
- نسيج النص ، الأزهر الزناد ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط١،١٩٩٣.